حدث في رمضان

في ذكرى نشوبها 2 رمضان 114 هـ

بلاط الشهداء.. وتوقف المد الإسلامي في أوروبا

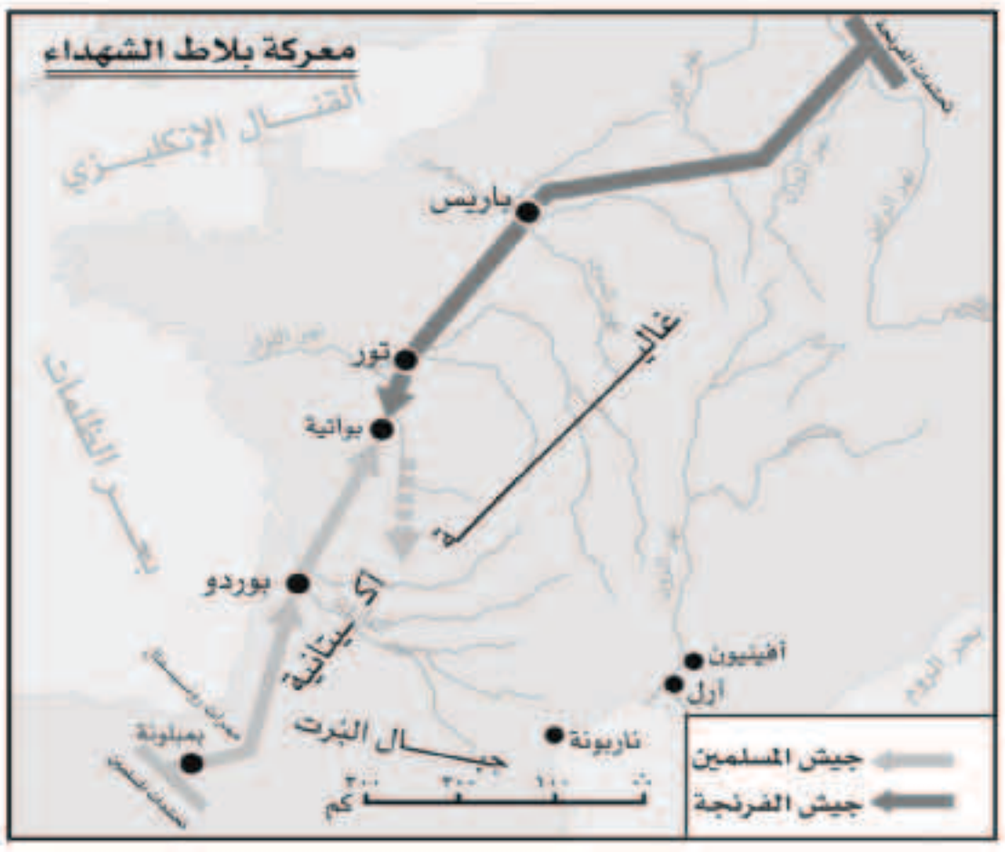

فتح المسلمون الأندلس سنة (92هـ-711م) في عهد الخليفة الأموي «الوليد بن عبدالملك»، وغنموا ملك القوط على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير، وأصبحت الأندلس منذ ذلك الوقت ولاية إسلامية تابعة لدولة الخلافة الأموية، وتعاقب عليها الولاة والحكام ينظمون شؤونها ويدبرون أحوالها، ويواصلون الفتح الإسلامي إلى ما وراء جبال البرت في فرنسا.

ولم يكد يمضي على فتح الأندلس سنوات قليلة حتى نجح المسلمون في فتح جنوبي فرنسا واجتياح ولاياتها، وكانت تعرف في ذلك الحين بالأرض الكبيرة أو بلاد الغال، وكان بطل هذه الفتوحات هو «السمح بن مالك» والي الأندلس، وكان حاكما وافر الخبرة، راجح العقل، نجح في ولايته للأندلس، فقبض على زمام الأمور، وقمع الفتن والثورات، وأصلح الإدارة والجيش.

وفي إحدى غزواته التقى السمح بن مالك بقوات الفرنجة في تولوشة (تولوز)، ونشبت معركة هائلة ثبت فيها المسلمون ثباتا عظيما على قلة عددهم وأبدوا شجاعة نادرة، وفي الوقت الذي تارجح فيه النصر بين الفريقين سقط السمح بن مالك شهيدًا من فوق جواده في (9 من ذي الحجة 102 هـ - 9 من يونيو 721م)، فاضطربت صفوف الجيش واختل نظامه وارتد المسلمون إلى «سبتمانيا» بعد أن فقدوا زهرة جندهم.

مواصلة الفتح

وعلى إثر استشهاد السمح بن مالك تولّى عبدالرحمن الغافقي القيادة العامة للجيش وولاية الأندلس، حتى تنظر الخلافة الأموية وترى رأيها، ففضى الغافقي بضعة أشهر في تنظيم أحوال البلاد وإصلاح الأمور حتى تولى «عنبسة بن سحيم الكلبي» ولاية الأندلس في (صفر سنة 103 هـ - أغسطس من 721م)، فاستكمل ما بدأه الغافقي من خطط الإصلاح وتنظيم شؤون ولايته والاستعداد لمواصلة الفتح، حتى إذا تهيأ له ذلك سار بجيشه في أواخر سنة (105 هـ = 724م) قاصدًا فتح إقليم سبتمانيا، وواصل سيره حتى بلغ مدينة «أونون» في أعالي نهر الرون، وبسط سلطانه في شرق جنوبي فرنسا، وفي أثناء عودته إلى الجنوب داهمته جموع كبيرة من الفرنج، وكان في جمع من جيشه؛ فأصيب في هذه المعركة قبل أن ينجده باقي جيشه، ثم لم يلبث أن توفي على إثرها في (شعبان 107 هـ - ديسمبر 725م).

وبعد وفاته توقف الفتح وانشغلت الأندلس بالفتن والثورات، ولم ينجح الولاة الستة الذين تعاقبوا على الأندلس في إعادة الهدوء والنظام إليها والسيطرة على مقاليد الأمور، حتى تولى عبد الرحمن الغافقي أمور الأندلس في سنة (112 هـ = 730م).

لم تكن أحوال البلاد جديدة عليه فقد سبق أن تولى أمورها عقب استشهاد السمح بن مالك، وعرف أحوالها وخبر شؤونها، ولا تمدنا المصادر التاريخية بشيء كثير عن سيرته الأولى، وجل ما يعرف عنه أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ومكنته شجاعته وقدراته العسكرية من أن يكون من كبار قادة الأندلس، وجمع إلى قيادته حسن السياسة وتصريف الأمور؛ ولذا اختاره المسلمون لقيادة الجيش وإمارة الأندلس عقب موقعه «تولوشة».

كان الغافقي حاكما عادلا قديرا على إدارة شؤون دولته، وتجمع الروايات التاريخية على كريم صفاته، وتشيد بعدله، فرحبت الأندلس بتعيينه لسابق معرفتها به وبسياسته، ولم يكن غريبا أن يحبه الجند لرفقه وليونته، وتتراضى القبائل العربية فتكف عن ثوراتها، ويسود الوئام إدارة الدولة والجيش.

غير أن هذا الاستقرار والنظام الذي حل بالأندلس تغصصه تحركات من الفرنج والقوط واستعداد لمهاجمة المواقع الإسلامية في الشمال، ولم يكن لمثل الغافقي أن يسكت وهو رجل مجاهد عظيم الإيمان، لا تزال ذكريات هزيمة تولوشة تؤرق نفسه، وينتظر الفرصة السانحة لمحو آثارها، أما وقد جاءت فلابد أن ينتهزها ويستعد لها أحسن استعداد، فأعلن عزمه على الفتح، وتدفق إليه المجاهدون من كل جهة حتى بلغوا ما بين سبعين ومائة ألف رجل.

خط سير الحملة

جمع عبد الرحمن جنده في «بنبلونة» شمال الأندلس، وعبر بهم في أوائل سنة (114 هـ = 732م) جبال البرت ودخل فرنسا (بلاد الغال)، واتجه إلى الجنوب إلى مدينة «آرل» الواقعة على نهر الرون؛ لامتناعها عن دفع الجزية وخروجها عن طاعته، ففتحها بعد معركة هائلة، ثم توجه غربا إلى دوقية أقطانيا «أكويتين»، وحقق عليها نصرا حاسما على ضفاف نهر الدوردوني ومزق جيشها شر ممزق، واضطر الدوق «أودو» أن يتظهر بقواته نحو الشمال تاركا عاصمته «بردال» (بوردو) لمبدخلها المسلمون فاتحين، وأصبحت ولاية أكويتين في قبضة المسلمين تماما، ومضى الغافقي نحو نهر اللوار وتوجه إلى مدينة «تور» ثانية مدائن الدوقية، وفيها كنيسة «سان مارتان»، وكانت ذات شهرة فائقة آنذاك؛ فاقتحم المسلمون المدينة واستولوا عليها، ولم يجد الدوق «أودو» بدا من الاستنجاد بالدولة الميروفنجية، وكانت أمورها في يد شارل مارتل، فلبى النداء وأسرع بنجدته، وكان من قبل لا يُعنى بتحركات المسلمين في جنوب فرنسا؛ نظرا للخلاف الذي كان بينه وبين أودو دوق أقطانيا

استعداد الفرنجة

وجد شارل مارتل في طلب نجدته فرصة لبسط نفوذه على أقطانيا التي كانت بيد غريمه، ووقف الفتح الإسلامي بعد أن بات يهدده، فتحرك على الفور ولم يدخر جهدا في الاستعداد، فبعث يستقدم الجند من كل مكان فوافته جنود أحلاف أقوياء يحاربون شبه عراة، بالإضافة إلى جنده وكانوا أقوياء لهم خبرة بالحروب والنوازل، وبعد أن أتم شارل مارتل استعداده تحرك بجيشه الجرار الذي يزيد في عدده على جيش المسلمين بهز الأرض هزا، وتردد سهول فرنسا صدى أصوات الجنود وجلباتهم حتى وصل إلى مروج نهر اللوار الجنوبية.

اللقاء المرتقب

كان الجيش الإسلامي قد انتهى بعد زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور بعد أن استولى على المدينتين، وفي ذلك الوقت كان جيش شارل مارتل قد انتهى إلى اللوار دون أن ينتبه المسلمون بقدوم طلائعه، وحين أراد الغافقي أن يقتحم نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى قبل أن يكمل استعداده فاجأه مارتل بقواته الجرارة التي تفوق جيش المسلمين في الكثرة، فاضطر عبدالرحمن إلى الرجوع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر شارل بقواته نهر اللوار وعسكر بجيشه على بعد أميال قليلة من جيش الغافقي.

وفي ذلك السهل دارت المعركة بين الفريقين، ولا يُعرف على وجه الدقة موقع الميدان الذي دارت فيه أحداث المعركة، وإن رجحت بعض الروايات أنها وقعت على مقربة من طريق روماني يصل بين بواتييه وشاتلرو في مكان يبعد نحو عشرين كيلومترا من شمالي شرق بواتييه يسمّى بالبلاط، وهي كلمة تعني في الأندلس القصر أو الحصن الذي حوله حدائق؛ ولذا سميت المعركة في المصادر العربية ببلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، وتسمّى في المصادر الأوروبية معركة «تور-بواتييه».

ونشب القتال بين الفريقين في (أواخر شعبان 114 هـ أكتوبر 732م)، واستمر تسعة أيام حتى أوائل شهر رمضان، دون أن يحقق أحدهما نصرا حاسما لصالحه.

وفي اليوم العاشر نشبت معركة هائلة، وأبدى كلا الفريقين منتهى الشجاعة والجلد والثبات، حتى بدأ الإعياء على الفرنجة ولاحت تباشير النصر للمسلمين، ولكن حدث أن اخترقت فرقة من فرسان العدو إلى خلف صفوف المسلمين، حيث معسكر الغنائم، فارتدت فرقة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة لرد الهجوم المباغت وحماية الغنائم، غير أن هذا أدى إلى خلل في النظام، واضطراب صفوف المسلمين، واتساع في الثغرة التي نفذ منها الفرنجة.

وحاول الغافقي أن يعيد النظام ويمسك بزمام الأمور ويرد الحماس إلى نفوس جنده، لكن الموت لم يسعفه بعد أن أصابه سهم غادر أودى بحياته فسقط شهيدا في الميدان، فازدادت صفوف المسلمين اضطرابا وعم الذعر في الجيش، ولولا بقية من ثبات راسخ وإيمان جياش، ورغبة في النصر لحدثت كارثة كبرى للمسلمين أمام جيش يفوقهم عددا، وصبر المسلمون حتى أقبل الليل فانتهزوا فرصة ظلام الليل وانسحبوا إلى سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنيمة للعدو.

ولما لاح الصباح نهض الفرنجة لمواصلة القتال فلم يجدوا أحدا من المسلمين، ولم يجدوا سوى السكون الذي يطبق على المكان، فتقدموا على حذر نحو الخيام لعل في الأمر خديعة فوجدوها خاوية إلا من الجرحى العاجزين عن الحركة؛ فذبحوهم على الفور، واكتفى شارل مارتل بانسحاب المسلمين، ولم يجرؤ على مطاردتهم، وعاد بجيشه إلى الشمال من حيث أتى.

تحليل المعركة

تضافرت عوامل كثيرة في هذه النتيجة المخزية، منها أن المسلمين قطعوا آلاف الأميال منذ خروجهم من الأندلس، وأنهكتهم الحروب المتصلة في فرنسا، وأرهقهم السير والحركة، وطوال هذا المسير لم يصلهم مدد بجدد حيوية الجيش ويعينه على مهمته، فالشقة بعيدة بينهم وبين مركز الخلافة في دمشق، فكانوا في سيرهم في نواحي فرنسا أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ، ولم تكن قرطبة عاصمة الأندلس بمكنها معاونة الجيش؛ لأن كثيرًا من العرب الفاتحين تفرقوا في نواحيها.

وتبالغ الروايات في قصة الغنائم وحرص المسلمين على حمايتها، فلم تكن الغنائم تشغلهم وهم الذين قطعوا هذه الفيافي لنشر الإسلام وإعلاء كلمته، ولم نألف في حروب المسلمين الحرص عليها وحملها معهم أينما ذهبوا، ولو كانوا حريصين عليها لحملوها معهم في أثناء انسحابهم في ظلمة الليل، في الوقت التي تذكر فيه الروايات أن الجيش الإسلامي ترك خيامه منصوبة والغنائم مطروحة في أماكنها.

نتائج المعركة

كثر الكلام حول هذه المعركة، وأحاطها المؤرخون الأوروبيون باهتمام مبالغ، وجعلوها معركة فاصلة، ولا يخفى سر اهتمامهم بها، فمعظمهم يعدها إنقاذا لأوروبا، فيقول «إدوارد جيبون» في كتاب «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» عن هذه المعركة: «إنها أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن الديني والديني، وحفظت جلال روما، وشدت بأزر النصرانية».

ويقول السير «إدوارد كريزي»: «إن النصر العظيم الذي ناله شارل مارتل على العرب سنة 732م وضع حدا حاسما لفتوح العرب في غرب أوروبا، وأنقذ النصرانية من الإسلام».

ويرى فريق آخر من المؤرخين المعتدلين في هذا الانتصار نكبة كبيرة حلت بأوروبا، وحرمتها من المدنية والحضارة، فيقول «جوستاف لوبون» في كتابه المعروف «حضارة العرب»، الذي ترجمه «عادل زعيتر» إلى العربية في دقة وبلاغة:

«لو أن العرب استولوا على فرنسا، إذن لصارت باريس مثل قرطبة في اسبانيا، مركزا للحضارة والعلم؛ حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ بل ويقرض الشعر أحيانا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا لا يعرفون كتابة أسمائهم».

وبعد معركة بلاط الشهداء لم تسنح للمسلمين فرصة أخرى لينفذوا إلى قلب أوروبا، فقد أصيبوا بتفرقة الكلمة، واشتعال المنازعات، في الوقت الذي توحدت قوة النصارى، وبدأت ما يسمّى بحركة الاسترداد والاستيلاء على ما في يد المسلمين في الأندلس من مدن وقواعد.

الخروج لفتح مكة

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك للصادف الثالث والعشرين من شهر ديسمبر للعام 629 للميلاد، خرج رسول الله (صلى الله علية وسلّم) لفتح مكة هو وأصحابه الكرام، وكان يصادف يوم الأربعاء.

فتح المغرب الأوسط

في 2 رمضان عام 82هـ كانت الجيوش الإسلامية في شمال افريقيا تواجه الروم من جهة والبربر من جهة أخرى، وكانت زعيمة البربر تسمى الكاهنة وقد استطاعت أن تجمع شملهم وتحارب المسلمين سنوات طويلة، ولم يستطع القائد المسلم زهير بن قيس أن ينتصر عليها حتى جاء الحسان بن النعمان الذي صمم على فتح جميع بلاد المغرب إذ انطلق متوجها إلى أواسط المغرب والتقى بجيوش الكاهنة وانتصر عليها في رمضان عام 82 هـ.

الشروع في بناء مدينة القيروان

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك المصادف للثاني والعشرين من شهر أيلول للعام 670 للميلاد، شرع في بناء مدينة القيروان، بإشراف فاتحها العظيم عقبة بن نافع «رضي الله عنه». والقيروان كلمة معربة عن (كاراوان) باللغة الفارسية ومعناها (موضع النزول).

تشتهر القيروان في التاريخ بعلمها وفقهائها، في مقدمتهم الفقيه العظيم عبدالله بن أبي القيْرَواني صاحب (الرسالة الفقهية). ومن أهم معالم القيروان:جامع عقبة بن نافع

ضريح الصحابي أبي زَمعة البلوي «رضي الله عنه» وحَوض الأغالبة، وهما من المعالم التي لا تزال موجودة إلى اليوم

معركة «بلاط الشهداء»

في 2 من رمضان 114 هـ الموافق 26 من أكتوبر 732م: اشتعلت معركة «بلاط الشهداء» بين المسلمين بقيادة «عبدالرحمن الغافقي» والفرنجة بقيادة «شارل مارتل»، وجرت أحداث هذه المعركة في فرنسا في المنطقة الواقعة بين مدينتي «تور» و«بواتييه»، وقد اشتعلت المعركة مدة عشرة أيام من أواخر شعبان حتى أوائل شهر رمضان، ولم تنته المعركة بانتصار أحد الفريقين، لكن المسلمين انسحبوا بالليل وتركوا ساحة القتال.

سقوط الدولة الأموية وقيام العباسية

في الثاني من شهر رمضان عام 132هـ الموافق 13 إبريل 750م استولى عبدالله أبوالعباس على دمشق، وبذلك سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.

الظاهر الفاطمي يصلي الجمعة في الجامع الأزهر

الجمعة 2 رمضان سنة 415هـ ركب الخليفة الظاهر الفاطمي إلى صلاة الجمعة بالجامع الأزهر وعلى رأسه عمامة بيضاء بالذهب والمظلة فوق رأسه بالذهب، وطلع معه المنبر قاضي القضاة أحمد بن أبي العوام فارخى عليه ستر القية التي في أعلى المنبر، والعنبر يبخر بين يديه في المباخر الذهب والفضة، فخطب من وراء الستر ثم كشف عنه قاضي القضاة الستر ونزل فصلى ثم عاد في موكبه إلى قصره.

ويوم الإثنين 2 رمضان سنة826 هـ أمر السلطان برسباي باعتقال الأمير سودون الأشقر ونفيه إلى القدس، ثم أنعم عليه بإمارة دمشق فيما بعد. وفي نفس اليوم خرج من القاهرة عدد من الأمراء سافروا للإسكندرية ودمياط ورشيد لأن الأخبار جاءت بتحرك قراصنة الفرنجة نحو السواحل المصرية.

أحداث عسقلان

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك الموافق الثالث والعشرين من شهر سبتمبر للعام الميلادي 1191، غادر السلطان صلاح الدين الأيوبي مدينة عسقلان . وذلك بعد أن أخلى كل سكانها من العرب، وخربها وحطم أسوارها، وذلك خشية أن يستولي عليها الصليبيون ويأسروا أهلها ويجعلوها وسيلة لأخذ بيت المقدس.

وقبل البدء في تخريب المدينة قال صلاح الدين الأيوبي قولته المشهورة: (والله لموت جميع أولادي أهون علي من تخريب حجر واحد منها).

مولد المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون

في الثاني من شهر رمضان عام 732هـ الموافق 27 مايو 1332م ولد المؤرخ والفيلسوف العربي المسلم عبدالرحمن بن خلدون.

خروج حملة فتح قبرص

في يوم الجمعة 2 رمضان سنة 829 هـ خرجت الحملة التي أرسلها السلطان برسباي لغزو قبرص التي كانت محطة للقرصنة ضد السواحل المصرية والشامية، وكان قواد الحملة أربعة من الأمراء المماليك، تغري بردي المحمودي مقدم عسكر البر، اينال الجكمي مقدم عسكر البحر، ثم تغري برمش ومراد خجا، وتبعهم المجاهدون، وانطلقت الحملة من رشيد، وفي البحر انكسرت منهم أربعة مراكب وغرق منهم نحو العشرة، ووصل الخبر للسلطان برسباي فانزعج وهم بإبطال الحملة، ثم أرسل الأمير جرباش حاجب الحجاب ليكشف الخبر ويقرر الحل المناسب، فذهب إلى هناك وقرر استمرار الحملة، وقد نجحت تلك الحملة في الاستيلاء على جزيرة قبرص وتدمير جيشها وأسر ملكها وإحضاره إلى القاهرة، وبذلك أصبحت قبرص تابعة للدولة المملوكية.

الاستيلاء على كريت

في 2 أو 3 رمضان 1239هـ الموافق 1824م استولى المصريون على جزيرة كريت.